

معاني (كان) وبعض أخواتها اللاتي أخبارها طبائع المخلوقات وصفات الخالق

أ.م.د. شكيب غازي الحلفي

مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

المقدمة:

إن أهمية هذا البحث ترجع إلى الاستعمالات الخاصة للوحدة النحوية (كان) وبعض أخواتها التي جرى العرف التقليدي أن تُعرب فعلا ماضيا ناقصا، أي بحاجة إلى خبر دلالي تتم فيه الفائدة. وهذا النقص في معنى الحدث الدلالي لا مشكلة فيه، وإنما المشكلة في زمن (كان) المُحدد بالماضي المنقطع الذي كثر استعماله لإضافة فكرة الزمن المحدد إلى الجمل المستمرة الزمن الدالة على الثبوت، نحو قولنا: (زيدٌ نشيط)، فإذا أردنا تحديد النشاط بالماضي قلنا: (كانَ زيدٌ نشيطاً)، أي: أنه الآن ليس بنشيط؛ لانقطاع زمن الناشط من الاستمرار في الحاضر. وإذا أردنا تحديد زمن النشاط بالمضارع قلنا: (يكونُ زيدٌ نشيطاً)، أي: نشيط (هنا- الآن)، وليس في الماضي ولا في المستقبل المنقطع عن المستقبل، وإذا أردنا تحديد زمن النشاط بالمستقبل قلنا: (سيكونُ زيدٌ نشيطاً)، أي: في المستقبل على سبيل التوقع وليس الآن ولا في الماضي.

هذه الاستعمالات ولدت مشكلة بالمعنى عندما جاءت أخبار (كان) دالة على طبائع للمخلوقات وصفاتاً للخالق سبحانه وتعالى، أو فضائل له على الأنبياء والناس، التي نتصورها بأنها ثابتة غير محددة بزمن بخلاف زمن (كان) المحدد؛ لذلك تكون الجمل القرآنية نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ٩٦ و ١٠٠). و﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٧، الفتح: ٦٢) وغيرها مما لو أُعربنا (كان) فعلا ماضيا ناقصا سيكون التركيب النحوي صحيحا ولكن المعنى فاسد، إذ يجعل هذا الإعراب (الله) غفورا رحيمًا وعليما وحكيما في الماضي فقط، أما الآن وفي المستقبل فليس كذلك، وهذا محال، وكذلك تظهر المشكلة إذا جاءت أخبار (كان) دالة على طبائع المخلوقات، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١)، فالإنسان كان ولم يزل كذلك، ولم يكن عجولا في الماضي فحسب.

ويمكن أن نضع تقنيتين تحليليتين للبحث:

أولاهما: تقنية (كان ولم يزل كذلك): وتستعمل لتحليل الجمل التي تأتي أخبار (كان) فيها من الصفات الثابتة التي ليس لها ضدّ، وتعني هذه التقنية أنّ زمن (كان) هو الماضي المستمر، وهي ناقصة بمعنى أنّها بحاجة إلى خبر دلالي منصوب على الخبرية.

ثانيتها: تقنية: (كان بمعنى صار كذا بعد كان كذا): وتستعمل لتحليل الجمل التي تأتي أخبار (كان) فيها من الصفات التي لها ضدّ، وتعني هذه التقنية أنّ زمن (كان) هو الماضي المستمر؛ لأنّ الماضي المنقطع يُفسد المعنى، ويكون الخبر منصوباً على الحالية.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يُقسّم على ثلاثة مباحث تسبقهما مقدمة عرضت فيها مشكلة البحث يليها تمهيد نظري يُبين أهمية المسند، وختمَ بخاتمة عرضت فيها أهم نتائج البحث، تليها قائمة بأسماء المصادر والمراجع، أما المباحث الثلاثة فهي:

المبحث الأول: استعمالات (كان) التامة والناقصة المحددة الزمن.

المبحث الثاني: استعمالات (كان) بمعنى: (كان ولم يزل).

المبحث الثالث: استعمالات (كان) بمعنى (صار) التي أخبارها أحوال ثابتة.

تمهيد: معاني المسند:

تتألف الجملة العربية المفيدة من مسند إليه: (فاعل/ مبتدأ)، وهو موضوع الكلام الذي يشير في -الأعمّ الأغلب- إلى جثث في الخارج، ومن مسند: (فعل/ خبر) بحسب نوع الجملة فعلية كانت أم اسمية. والمسند إليه فقير المعاني، أما المسند فله أهمية خاصة نظراً لغناه المعنوي، إذ يحمل المعاني الآتية:

١- المعنى المعجمي للمصدر: وهو (المجيء) في جملة: (جاء زيد).

٢- معنى الزمن: إذ يحمل المسند (الفعل/ الخبر) فكرة الزمن، وينقسم الزمن على قسمين:

أولهما: الزمن المُحدد: وهو واضح لغوياً، بسبب السوابق الصرفية التي تسبق الجذر، فالماضي علامته صفر، بالقياس إلى المضارع المميّز بسوابقه: (أنيث)، وثمة زمن محدد ثالث هو المستقبل المميّز بـ(السين

وسوف). قال ابن عصفور: المستقبل هو الذي "دخل عليه حرف من الحروف المُخْلِصة للاستقبال، كالسين، وسوف،... التي لا تكون ما بعدها إلا مستقبلاً"^(١).

ثانيهما: الزمن المستمر: ويسميه الكوفيون بـ(الزمن الدائم)، ويعنون به شموله لجميع الأزمنة: (الماضي والمضارع والمستقبل)^(٢)، لأداء معنى الثبوت في وصف المسند للمسند إليه. وهو كثير الاستعمال في كلام العرب وفي القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ (الأنعام: ٩٥)، و﴿فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (فاطر: ١)، وغيرهما كثيرٌ ما يدلّ على ثبوت الانفلاق والانفطار في: (الماضي والمضارع والمستقبل)، قال الجرجاني: "فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨)، فإنّ أحدا لا يشكّ في امتناع الفعل ههنا، وأنّ قولنا: (كلبهم يبسط ذراعيه) لا يؤدّي الغرض. وليس ذلك إلا لأنّ الفعل [المحدد المضارع] يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم [الخبر] ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة فعل ومعنى يحدث شيئا فشيئا. ولا فرق بين (كلبهم باسط) وبين أن تقول: (كلبهم واحد) مثلا، في أنّك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئا، بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب"^(٣).

وقد تبنّى سيبويه (ت ١٨٠هـ) التقسيم الثلاثي لزمن الفعل وأهمّل الزمن المستمر^(٤) متأثرا بالتقسيم الفلسفي للزمن؛ لأنّه على مثال حركات الفلك الثلاث، وتابعه ابن يعيش (ت ٦٤٣هـ) موضحا أساس هذا التقسيم بقوله: "لما كانت الأفعال مساوقة للزمان، ولما كان الزمان ثلاثة: ماضٍ، وحاضر، ومستقبل، وذلك من قبيل أنّ الأزمنة حركات الفلك، فمنها حركة مضت، ومنها حركة لم تأت بعد، ومنها حركة تفصل بين الماضية والآتية، كانت الأفعال: ماضٍ ومستقبل، وحاضر"^(٥).

وبقي هذا التقسيم المغلوط قائما حتى اليوم؛ لأنّ النحو التقليدي قسّم الفصائل النحوية داخل منهج (الصرف) بتوسيع منهجية واحدة لتشمل وحدات أكثر تعقيدا هي (الجملة)، لكنّ الجملة كلّ أكبر من مكوناته؛ لذلك قيل: "الجملة هي وحدة خطاب... تتكوّن من علامات لكنّها ليست علامة"^(٦).

وعلى هذا الأساس اضطربت دراسة كبار النحاة من القدماء والمحدثين أيضا لزمن المسند، مثال ذلك تقسيم

المخزومي لزمن المسند على ثلاثة أقسام، موافقا تقسيم الكوفيين^(٧): أولها: الماضي، ويُعبّر عنه بصيغة (فَعَلَ). ثانيها: الحاضر، ويُعبّر عنه بصيغة (يُفَعَلُ). ثالثها: الدائم، ويُعبّر عنه بصيغة (فاعل ومفعول)، ونسي الزمن المستقبل: (سيقوم، وسوف يقوم) المعبّر عن توقّع حدوث مزاولة فعلٍ في المستقبل؛ لأنّه خلط هذا المعنى بمعنى الفعل المضارع الذي يعني مزاولة حركة (هنا- الآن)، نحو: (يلعبُ، يكتبُ). ثمّ جعل المخزومي زمن الفعل الدائم قسيما ثالثا لمعنى الزمنين المُحددين للفعل: (الماضي والمضارع)، والصحيح أنّه قسيمٌ ثانٍ لهما جميعا؛ لأنّ الزمن المستمر أو الدائم بتسمية الكوفيين يدلّ على ثبوت الصفة على موصوفها لشموله على: (الماضي والمضارع والمستقبل) جميعا، ومثاله قولنا: (الجبَلُ قائمٌ)، في حين يدلّ كلّ من الماضي والمضارع والمستقبل على تحديد حدوث الفعل، فهو إما حدث ومضى ولم يستمر الآن، أو يحدث بمزاوله حركة (هنا- الآن)، أو سيحدث مستقبلا، على سبيل التوقّع.

ويأتي الزمن المستمر عند استعمال المشتقات الستة: (اسم الفاعل، واسم المفعول، وصيغ المبالغة، والصفة المشبهة، والمصدر)، ونحوها ممّا يُستعمل في موقع الفعل ويؤدّي وظيفة المسند برفع فاعل له، لتكوين جُملي فعلية فعلها مستمر الزمن دلالة على الثبوت مع التفاوت بقوة الثبوت باستعمال المشتقات المختلفة، نحو قولنا: (فاضلٌ زيدٌ، محمودٌ زيدٌ، نجارٌ زيدٌ، شجاعٌ زيدٌ، الأطولُ زيدٌ، وعدلٌ زيدٌ).

وهناك أزمنة فرعية داخلية غير الأزمنة الخارجية الأربعة السابقة، وهي أكثر تعقيدا لاتصالها بالدلالة وبالمقام، ومثال ما اتصل بالدلالة قصر زمن الفعل وطول مدّته، نحو قولنا: (سقطَ الجدارُ)، (سقطَ ماضٍ زمنه قصيرة، بخلاف قولنا: (تأكَلَ الجبَلُ). وقد يتركّب الماضي مع (قد) فنقرّب للمضارع، قال ابن جني (ت٣٩٢هـ): "قد) تقرّب الماضي من الحاضر حتى تلحقه بحكمه أو تكاد، ألا تراهم يقولون: قد قامت الصلاة، قبل حال قيامها؟"^(٨). وسوف نطلق على هذا الزمن الماضي المستمر، الذي تؤدّيه (كان) وبعض أخواتها بمعنى (صار)، وهي: (صار، وأصبح، وأمسى، وبات، وظلّ، وما زال)^(٩)، التي تكون أخبارها أحوالا.

وقد يؤدّي الماضي معنى المستقبل في سياق الشرط، نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَارِمِينَ ﴿ (القلم: ٢٢). وقد يؤدي معنى حكاية الماضي في تركيب: (كَانَ يفعلُ)، التي تتحدث عن حدوث الحدث مرة واحدة، أو استغرقه مدة زمنية، أو غير ذلك ما يجعل "الأزمان منها ما يكون قريبا، أو بعيدا، أو مختلفا جدًا من حيث القرب أو البعد بالنسبة للفاعل أو للراوي [ما يعني] وجود علاقة الفعل بالزمان في هذا الإطار تكشف لنا تعدد المراتب الزمنية بأنها أكثر من ثلاثة" (١٠).

٤- معاني التعبير عن الأفكار وتقوية التواصل: وهذه المعاني هي الأهم وهي اربعة:

أ- يُمكننا من إسناد عدد لا يُحصى من الصفات لذات واحدة هي (زيد) مثلا.

ب- يُمكننا من إنشاء علاقة بين فئات من الأشياء، نحو قولنا: (الأوكسجين غاز). وتكون العلاقة هنا علاقة انتماء وتكون (أل) في (الأوكسجين) جنسية نكرة بمعنى (كلّ) والتقدير: (كل أوكسجين ينتمي إلى جنس الغاز). هذه العلاقة التي تكوّن جملا اسمية لم يعرفها النحاة التقليديون؛ لذلك عدوا قوله تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) جملة اسمية تقدّم فيها الخبر الجار والمجرور (من المؤمنين) على المبتدأ (رجالٌ صدقوا)، تحت قاعدة جواز الابتداء بالنكرات الموصوفة، قال الدكتور رابح بومعزة: "تجد أنّ المسند إليه (رجالٌ) هو المبتدأ على الرغم من أنه لم يُتبدأ به فيها، إذ لا يُغيّر من تسمية المبتدأ في الجملة الاسمية تقدّم الخبر عليه، وهو ما يُبيّن أنّ النحاة لم تكن تسميتهم شكلية، سواء أكان التقديم واجبا أم جائزا" (١١).

والصحيح أنّ الشاهد جملة اسمية، لكن ليس فيها تقديم وتأخير؛ لأنّ المعنى: (بعض المؤمنين ينتمون إلى جنس الرجال الصادقين)، وما بعد الفعل المساعد (ينتمي) المحذوف هو الخبر النكرة في ذهن المتلقي. هكذا انقلب المعنى رأسا على عقب في إعراب بومعزة ومحبي الدين الدرويش أيضا على الرغم من إدراكه علاقة التقسيم والانتماء؟! قال مفسّر الآية الكريمة بأنها: "كلام مستأنف مسوق لبيان حال الصالحين من الصحابة... وتقسيمهم إلى قسمين. (من المؤمنين) خبر مقدّم، و(رجالٌ) مبتدأ مؤخّر، وجملة: صدقوا صفة لرجال... (١٢)؛ ليصبح المعنى فاسدا بتقدير انتماء الكلّ إلى الجزء: (رجالٌ صدقوا ينتمون إلى بعض المؤمنين)، والصحيح هو العكس: (بعض المؤمنين ينتمي إلى جنس الرجال الصادقين، وبعضهم ينتمي إلى

الكاذبين ممّن لم يطابق فعلهم كلامهم).

ج- يُمكننا من إنشاء علاقة بيننا وبين الأشياء الأخرى، نحو قولنا: (اللَّهُ ربُّنا، وحمد نبينا، وزيدُ صديقنا... الخ).

د- يُمكننا من تقوية التواصل بين طرفي الاتصال؛ لأنّه يُعطي لفكرة (الخبر) محتوَاهُ الخاص به بوصفه واقعة كلامية ذات ثلاثة تعقّلات^(١٣):

التعقل الأول: التعقل الشكلي الأفقي: ويظهر في القضية الخبرية: (جاء زيدٌ)، المتكلم أخبر المتلقي بمجيء زيد؛ لأنّ سياق التواصل يُلزم المتكلم أن لا ينطق هذه الجملة بين جدران غرفة خالية من البشر الذين يفهمون لغته.

التعقل الثاني: التعقل المضموني العمودي: الذي يخترق التعقل الأفقي الشكلي: (الخبر) باتجاه عمودي ويكون خفياً ويمثل ثقل الكلام، وينقسم على قسمين:

أولهما: تعقل قصد المتكلم: ويُسمّى أيضاً بـ(المعنى القصدي)، ويظهر في تحذير المتلقي من مجيء زيد، إذا كان زيد عدواً له، أو تبشيره بمجيئه إذا كان زيد صديقاً مسافراً، أو غير ذلك من أغراض الكلام، بحسب المقام.

ثانيهما: التعقل تدبّر للمتلقي: ويحصل عندما يفهم المتلقي مقاصد المتكلم، فيفرّ أو يطلب النجدة أو يختفي، إذا كان زيد عدواً له، ويحضّر نفسه للتحية، أو لزيارته إلى صديقه في بيته، إذا كان زيد صديقاً له وكان غائباً ثم رجع، أو غير ذلك من التدابير بحسب المقام.

المبحث الأول: استعمالات (كان) التامة والناقصة المحددة الزمن:

لقد أشار بعض النحاة إلى أنّ الأصل في زمن (كان) هو الماضي المستمر، أما استعمالها لأداء معنى اتصاف اسمها بالخبر في زمن محدد، فإنّها -كما يقول ابن يعيش-: "بمنزلة أسماء الزمان، فقولك: (كان زيدٌ قائماً)، بمنزلة: (زيدٌ قائمٌ أمس)، وقولك: يكونُ زيدٌ قائماً، بمنزلة: (زيدٌ قائمٌ غداً). فثبت بما قلناه إنّها ليست أفعالاً حقيقية، إذ ليس فيها دلالة الفعل الحقيقي الذي هو المصدر، وإنّما هي مشبّهة بالأفعال لفظاً..."(١٤).

ولا نوافق ابن يعيش وغيره ممّن جعل الزمن المضارع يدلّ على الغد لقول ابن عصفور: المستقبل هو الذي "دخل عليه حرف من الحروف المُخلّصة للاستقبال، كالسين، وسوف،... التي لا تكون ما بعدها إلا مستقبلاً"(١٥).

إنّ شيوع استعمال (كان) للتعبير عن إضافة فكرة الزمن المحدد للجملة المستمرة وتكون ناقصة بمعنى أنّها تحتاج إلى خبر يؤدي معنى المصدر، لا يمنع من استعمالها فعلاً تامّاً يكتفي برفع فاعل له، وإنّ كانت استعمالاتها قليلة؛ لذلك سنقسم هذا المبحث على قسمين:

أولاً: استعمالات (كان) التامة:

(كانَ) التامة فعل حقيقي كـ(جاء) يحمل فكرة الزمن والدلالة على الحدث لتكوين جملة فعلية، وإذا تقدّم فاعلها تحوّلت إلى اسمية خبرها جملة فعلية، ومعناها في هذا الاستعمال (وُجِدَ) ومرادفاته نحو "حدث، وحصل"(١٦)، أو بمعنى (حضر)، أو (ثبت)، أو (وقع)... الخ، ومن ذلك قول الشاعر(١٧):

إذا كانَ الشتاء فأدْفئوني فإنَّ الشَّيخَ يهرمه الشتاء

أي: إذا حضرَ الشتاء ووقع وحلّ، وقد وردت بمعنى (حدث) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (البقرة: ١١٧)، (كُن) "فعل أمر من (كان) التامة بمعنى (حدث). (فيكون) الفاء استئنافية، و(يكون) فعل مضارع تامّ مرفوع، أي: يحدث"(١٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ (البقرة: ٢٨٠)، فـ(كان): "فعل ماضٍ تامّ بمعنى

(حدث ووُجِدَ)، وهي تكتفي بفاعلها كسائر الأفعال، أي: وإن حدث ذو عسرة، و(ذو) فاعلها^(١٩). وقدّره بعضهم بمعنى (وقع) والمعنى: "إن وقع ذو عسرة"^(٢٠)، مثله قوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٢، النساء: ٢٩)، وكذلك قراءة قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ١١)، تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ (النساء: ١١). و﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس: ٢٩، و٥٣) في قراءة من رفع على معنى (كان) التامة^(٢١)، بمعنى: (إلا أن تقع تجارة منكم)، و(إن وُجِدَت امرأة واحدة من الوارثات)، و(إن وقعت إلا صيحة واحدة).

وتتمّ كثير من أخوات (كان)، ولاسيما الثلاث وهنّ: "أضحى وأصبح وأمسى بأن يُراد بهنّ الدخول في الضحى والصبح والمُسي، كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الروم: ١٧)، أي: حين تدخلون في الصباح، و(واو) الجماعة في الموضوعين ضمير في محل رفع فاعل.

وقد أفاد الدكتور إبراهيم إبراهيم بأن صيغة أخوات (كان) الثلاث (أفعل، يُفعل) تؤهلها للمجيء تامة وناقصة بحاجة إلى خبر، أما إذا خرجت عن هذه الصيغة بزيادة همزة التعدية أو التعدية بتضعيف عين الفعل فإنها تصبح تامة فقط، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ (القمر: ٣٨)، (صبح) مضعّف العين فعل ماضٍ تامّ فاعله (عذاب)، والضمير (هم) مفعول به^(٢٢).

أما (صار) التامة فهي بمعنى (رجع) وهي تتعدّى بـ(إلى)، وبمعنى "ضمّ"، أو قطع إذا تعدّت بنفسها إلى مفعول واحد^(٢٣)، ومثال الأولى من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٣)، أي: ترجع الأمور إلى الله.

ثانياً: استعمالات (كان) الناقصة المحددة الزمن:

١- (كان) للماضي المنقطع:

(كان) المحددة زمن الماضي المنقطع تُعرف بقرينة مقامية يعرفها طرفا الاتصال: (المتكلم والمتلقي) كقولنا: (كنتُ مسافراً) بقصد العذر من عدم الحضور، أو قرينة لفظية كقولنا: "كان زيدٌ مريضاً، وهو اليوم صحيح، و(كانَ عمروٌ جاهلاً) وهو اليوم عالم..."^(٢٤).

وتأتي (كان) المحددة الزمن بالماضي المنقطع للماضي المنقطع الدال على الثبوت^(٢٥): ويحصل عندما يأتي الخبر من المشتقات المستمرة الزمن، نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، أي: كنتم أعداء في الماضي المنقطع عن زمن التلفظ (هنا- الآن)، وقد حدث هذا الحدث مستغرقا مدة من الزمن الماضي ثبتوا فيه على صفة العدوانية؛ لأنّ الخبر (أعداء) لا يحمل فكرة الزمن المحدد، فهو مستمر الزمن. وقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ (التوبة: ٦٩)، وقوله: ﴿وَوَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل: ٤٨)، وكلها تؤدي معنى الثبوت على صفة معينة وقعت في الماضي. وقد تأتي قرينة لفظية تدلّ على زمن الماضي المنقطع، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

القرينة اللفظية الدالة على الماضي المنقطع هي: (من قبل) وهي المانعة من استمرار زمن (كان) في الحاضر، وهذا يمنعها أن تؤدي معنى (صار) أيضا التي تكون أخبارها أحوالا، قال ابن السراج (ت٣١٦هـ): "الحال إنما هيأة الفاعل أو المفعول أو صفته في وقت ذلك الفعل المخبر به عنه..."^(٢٦). بمعنى أنّ زمن (جاء) في قولنا: (جاء زيدٌ راكبا) هو الماضي المستمر، ولو كان ماضي عامل الحال منقطع لما انسجم مع زمن الحال، الذي وصفه الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ) بأنه: "نهاية الماضي وبداية المستقبل..."^(٢٧). ولهذا يجب إعراب (كان) في الآية الكريمة بأنّها فعل ماضٍ منقطع الزمن واسمها مرفوع وخبرها منصوب على الخبرية، واستعمالاتها في القرآن الكريم والكلام البشري الفصيح كثيرة لا حصر له؛ لحاجة المتكلم أن يُعبّر عن تحديد زمن الخبر بحصره في الماضي المنقطع دلالة على انتهاء حركة مزاوله فعل، أو بالمضارع دلالة على مزاوله حركة تحدث (هنا- الآن) في أثناء التلفظ، أو دلالة توقع حصول مزاوله حركة في المستقبل.

وبهذا تترتب الأشياء في التاريخ زمانا ومكانا فيكون بعضها قبل بعض ويكون بعضها بعد بعض، حتى لو

كانت مرتبطة بالموجود القديم نحو (العرش) في علاقته مع المخلوقات الجديدة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود: ٧)، قال الزمخشري: "أي: ما كان تحته خلق قبل السماوات والأرض وارتفاعة فوقها إلا الماء. وفيه دليل على أنّ العرض والماء مخلوقين قبل السماوات والأرض" (٢٨).

أما بعد خلقهما فإنّ العرش الذي كان فيما مضى على الماء، صار عاليا على السماوات والأرض في زمن التلفظ في الوقت الحاضر والمستقبل، بل يتوسّع بتوسع السماوات المستمر لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧)، ولقوله: ﴿وَوَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥). فيكون (كرسيه) بمعنى (علمه)، وكذلك معنى العرض عند من قال بأنّ "الكرسي هو العرش نفسه" (٢٩).

٢- (كان + يفعل) لأداء معنى حكاية حدث الماضي المستغرق مدّة:

(كان) التي تؤدي معنى الماضي المستمر تستعمل لحكاية الماضي، الذي يُسمّى بـ(الماضي الروائي) The past continuous tense وهو "أسلوب للحكاية عن أمر حدث حقيقة أو حكماً، وذلك في زمن غير قريب، وضابطه أن يأتي الفعل على صيغة الماضي أو المضارع بعد (كان)، وبعد (لما) الجزائية التي تسبقها (لولا)، [ولو] الشرطيتان... كلّ ذلك في الكلام الإيجابي والسلبى على السواء، وهو زمان سابق استغرق فيه حدوث الفعل عبر مدّة" (٣٠). وقد ورد بهيأة: (كان يفعل) في قول الشاعر (٣١):

وكانوا أناساً ينفحون فأصبحوا وأكثر ما يُعطونك النّظر الشزرا

أي: كانوا كذلك حالهم في الماضي، ولا يحتمل معنى الصيرورة والتحوّل من حال إلى أخرى؛ لأنّ معنى الصيرورة موجود في البيت وهو: (وأكثر ما يعطونك...) وهو حال عاملها (أصبح) وليس (كانوا) التي جاء خبرها فعلاً مضارعاً (ينفحون) من النّفح وهو الضرب الشديد والعتاء، قال ابن منظور (ت ٧١١هـ): "قوس نفوح: شديدة الدفع والحفز للسهم، ونفحه بشيء، أي: أعطاه" (٣٢).

ومن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة: ١٠). (بما كانوا يكذبون): الخطاب موجّه للمنافقين الذين يعلنون الإيمان ويسرّون الكفر؛ لذلك تمّ

وصفهم بخبر جملة فعلية فعلها مضارع يدلّ على مزاوله حركة النفاق في الماضي وقد استغرق مدة، فثبت عليهم صفة الكذب وحُكي ماضيهم بهيأة: (كانوا يكذبون)، ولا يمكن اصلاحهم لأنّ الزمن لا يمكن إرجاعه إلى الوراء. وقرينة هذا المعنى مقامية تظهر في السياق السابق للجملة الخبرية الاسمية: (في قلوبهم مرضٌ)، والجملة الإنشائية: (فزادهم الله مرضاً)، التي تدلّ على الدعاء^(٣٣).

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥). حكاية للماضي، والمعنى: كانا في حياتهما الماضية يأكلان الطعام، كناية عن الغائط والبول^(٣٤)؛ لقد تأليه عيسى وأمّه (ع) من لحظة تلقّظ هذه الآية الكريمة فصاعداً.

وقد ورد هذا المعنى في الجمل المنفية، وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ﴾ (الشورى: ٥٢). (ما كنت تدري) أسلوب حكاية ماضٍ، لحتّ النبي(ص) على تذكر الماضي لتفعيل الشكر في الحاضر.

وقد ورد هذا الأسلوب في سياق الشرط، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). والمعنى مديح للنبي(ص) على مضة من سلوكه على الرغم من الأذى الذي ناله من قومه.

٣- (كُنْ): للدلالة على الزمن المضارع أو المستقبل: وذلك في جملة الأمر، نحو قولنا: (كن عادلاً)، وقد ينصرف زمن فعل الأمر إلى المستقبل في قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (طه: ٤٣)، قال الدكتور إبراهيم أنيس إننا: "لا نستطيع أن نتصوّر أنّ حدث الذهاب إلى فرعون قد تمّ في زمن التكلم، كما يقول النحاة!!"^(٣٥)، بدلالة المقام.

٤- (كان) الدالة على زمن المستقبل:

تستعمل لأداء معنى الزمن المحدد في المستقبل، وتدلّ على توقع حدوث حركة لم تقع بعد، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ

يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ (المزمل: ٢٠)، فقوله: (سيكون منكم...) توقع حدوث المرض والحاجة إلى طلب الرزق والجهاد قبل قوعها، بالنسبة للفئة التي كانت تقيم الليل، فحصل تشريع تخفيف "قيام الصلاة بالليل... والاكتفاء بما تيسر من صلاة الليل، ففي الصلاة المفروضة غنية للأمة مع إيتاء الزكاة ودوام الاستغفار" (٣٦).

المبحث الثاني: استعمالات (كان) للدلالة على الماضي المستمر: بمعنى (كان ولم يزل):

تكشف تقنية: (كان ولم يزل) التحليلية عن الجمل الخبرية التي تشبه الجمل الانشائية من حيث عدم احتمالها الصدق والكذب، نحو قولنا: (كَانَ الْحَدِيدُ ثَقِيلًا)، و(كَانَ الْخَشَبُ خَفِيفًا)، و(كَانَ التَّمَسَّاحُ حَيوانًا بَيوضًا)... الخ، أي كانت هذه الأشياء ولم تزال هذه طبائعها الثابتة لم تتغير كما تخبرنا بذلك الخبرة غير اللغوية، وزمن (كان) في هذه الاستعمالات هو الماضي المستمر في الحاضر والتوقع ببقائها على هذه الصفات في المستقبل. ومنه قول الشاعر (٣٧):

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِحٌ فَزِعٌ كَانِ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعِ الطَّنَابِيرِ

(كُنَّا) الأولى بمعنى: (كُنَّا ولم نزل هذه عادتنا)، أما (كَانَ) الثانية فهي بمعنى (صار)، والمعنى: "إن ما يُشاهدُ منهم الآن من اصطراخ المستغيث خُلِقَ قد عَلِمَ منهم قديماً" (٣٨). وهذا يعني أَنَّ (كان) بمعنى (كان ولم يزل) إذا جاءت أخبارها صفات للأشياء المخلوقة أُريد بها التنبيه على أَنَّ الخبر دالٌّ على غريزة وطبيعة أو خُلِقَ، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٧)، قال السامرائي: "تبّه بقوله (كان) على أنه لم يزل منذ أُوجد منظومًا على الكفر" (٣٩).

ويقتضي معنى الصيرورة أن يُعرب الخبر المنصوب حالًا؛ لأنَّ "صار دالة على التحول من وصف إلى آخر" (٤٠)، وهذا هو معنى الحال، ولا تكون الحال مع (صار) فضلة في هذا الاستعمال؛ لأنَّ حذفها يؤدي إلى تكوين جمل غير مفيدة، ما يجعل (صار) ليس تامّة كما زعم ابن مالك والعكبري (٤١)، بقياسها على جملة الحال التي يمكن حذفها ويبقى لدينا إسناد مفيد، في قولنا: (جاء زيدٌ راكبًا)، وحذف الحال (راكبًا)، تبقى جملة مفيدة وهي: (جاء زيدٌ).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء: ١١)، و﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢)، أي: كونه الذي وُجد عليه وخلقته التي خُلِقَ عليها^(٤٢)، كذلك الباطل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

وبهذا المعنى يُخبر المتكلم متلقيه عما لم يعلمه من طبائع الأشياء، ومنها إخبار القرآن الكريم عن صفات الله تعالى الثابتة التي ليس لها ضدّ حين تأتي أخبارا لـ (كان)، نحو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١)، بمعنى: (كان علينا رقيباً في جميع الأزمنة)، وهو معنى محمود، وليس في الماضي المنقطع فقط؛ لأنّ هذا المعنى فاسد يقصد به الذم.

كذلك صفة العلم والحكمة حين يأتیان خبرين لـ (كان) كما في قوله تعالى: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١). (علوماً) خبر (كان) المستمرة الزمن، وتعني استمرار علم الله تعالى بالمصالح، و(حكيماً) أي: استمراره بالحكمة في كلّ ما قضى وقدر. وتدخل فيه أحكام المواريث دخولاً أولياً، قال الألوسي: "والخبر عن الله يمثل هذه الألفاظ - كما قال الخليل - كالخبر بالحال والاستقبال؛ لأنه تعالى منزّه عن الدخول تحت الزمان [المحدد]. قال سيبويه: القوم لما شاهدوا علماً وحكمة وفضلاً وإحساناً تعجبوا فقبل لهم: (إنّ الله تعالى كان كذلك)، أي: لم يزل موصوفاً بهذه الصفات فلا حاجة إلى القول بزيادة (كان) كما ذهب إليه بعضهم"^(٤٣).

وقد تأتي صفات الله تعالى التي ليس لها ضدّ أخباراً لـ (كان) بهيأة معادلة قانونية: (أ = ب) بما لا يحتمل الصدق والكذب، وذلك حين تأتي في سياق توبيخ انحراف الإنسان عن السلوك الفطري فيؤدي خبر (كان) معنى الوعيد والتهديد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦).

(عزيزاً) أي: "عزّ فلا يعجزه شيء ولا يفوته، و(حكيماً) في إيعاده عبادته"^(٤٤)، وهذا الإخبار يوافق تصورنا عن صفات الله تعالى التي ليس لها ضدّ، ولا سيما في يوم القيامة إذ لا يستطيع أي سلطان أو حاكم أن يدعي العزة والحكمة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٣٩)، إذ نلاحظ أنّ السياق قبل جملة (كان) هو سياق إنشائي يراد به "الذم والتوبيخ... وهذا كما يُقال للمنتقم: ما ضرّك لو عفوت، وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت بارًا؟! وقد علم أنّه لا مضرّة ولا مرزأة في العفو والبرّ، ولكنّه ذمّ وتوبيخ، وتجهيل بمكان المنفعة. (وكان الله بهمن عليما) وعيدٌ" (٤٥). والوعيد لا يتحمل الماضي بل يحتمل الاستمرار في الحاضر والمستقبل.

وكذلك ورد هذا الاستعمال في سياق الأمر، الذي يحوّل زمن (كان) إلى الاستقبال، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤)، بمعنى: أنّ حال المؤمن في القتال يساوي وأقوى من حال الكافر بسبب رجاء المؤمن من الله تعالى الذي لا يُوجد عند الكافر، لذلك "حصل النهي من الخوف من الألم؛ لأنّه صفة الكافر. (وكان الله عليما حكيميا) يعني: كان ولم يزل عليما حكيميا فلا يكلفكم شيئا ولا يأمركم ولا ينهاكم إلاّ لما هو عالم به ممّا يصلحكم" (٤٦).

وتُعرب هذه الاستعمالات بأنّ (كان) وبعض أخواتها تستعمل للتعبير عن الزمن الماضي المستمر في الحاضر، ولا تُعرب أخبارها أحوالا لتكلف تأويل الحال في مثل هذه الاستعمالات، كما أعرب العكبري قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧) (عليما حكيميا) حالان "والعامل (كان)، وصاحب الحال ضمير الفاعل في (كان)... (٤٧). والمعنى: "صار عليما بما يصلح أمر عباده، و(حكيميا) في تقديره وتدبيره وتشريعهِ" (٤٨). وهذا التأويل فيه تكلف؛ ولهذا السبب لم يوافق مجمع اللغة العربية في القاهرة على ضمّ باب (كان) وأخواتها إلى باب الفعل وإعراب المنصوب حالاً" (٤٩).

وقد ورد هذا الأسلوب في الجمل المنفية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (المؤمنون: ١٧)، والمعنى: ما كنّا غافلين عن الخلق ولم نزل كذلك.

وخلاصة القول إنّ معنى (كان ولم يزل) قد وردت عليه شواهد قرآنية كثيرة أغلبها ورد في سورة النساء، إذ

وردت بهيأة الجملة المؤكدة: (إنَّ الله كان...) مع صفات الله تعالى التي ليس لها ضدّ ١٤ مرة، وبهيأة الجملة غير المؤكدة: (وكانَ اللهُ...) ١٥ مرة. ووردت في سورة الأحزاب بهيأة: (وكان اللهُ...) ٥ مرات، وفي سورة الفتح ٣ مرات، ومرة واحدة في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥).

والخطاب موجّه إلى المتكبرين الذي سألوا النبي(ص) أن يطرد فقراء المؤمنين كشرط لهم عليه لإيمانهم فضرب الله لهم مثلا بتشبيهه الدنيا بالماء الذي لا يستقرّ في موضع ويتحوّل في النهاية إلى نبات جاف متهشم تذروه الرياح. (وكانَ اللهُ على كلّ شيءٍ مقتدرا)، أي: كان ولم يزل مقتدرا على الإنشاء والإحياء^(٥٠).

المبحث الثالث: (كان) بمعنى (صار):

تُستعمل (كان) بمعنى (صار) لبيان تحوّل شيء من حال أولى متحوّلٍ منها إلى حال ثانية متحوّل إليها نحو قولنا: (أوقدنا نارا فكان الطينُ فخّارا وكان الماءُ بخارا)، ومنه قول الشاعر^(٥١):

تیهاء قفرٍ والمطیّ كأنها قطا الحزنِ قد كانت فراخاً بیوضها

وتلحق بـ(كان) بمعنى (صار) أفعال ناقصة أخرى من أخواتها تكون بحاجة إلى خبر يُعرب حالا، ومن ذلك قول الراجز^(٥٢):

وفي حُمیّا نجیه تفرّجُسُ ولا یزالُ وهو ألوی ألیسُ

قال ابن مالك: 'فاستغنى بالجملة الحالية عن الخبر... والتفجّس: المتكبر والأليس: الشجاع'^(٥٣). والجملة الحالية هي: (وهو ألوی ألیس)، وهي ثابتة؛ لأنّها تدلّ على خلقة^(٥٤).

وكذلك (ظلّ) تأتي بمعنى (صار)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (الزخرف: ١٧)، قال الأندلسي: "ظلّ تكون بمعنى (صار)، وبمعنى: أقام على الصفة التي تُسند إلى اسمها...؛ لأنّ التبشير قد يكون في ليل أو نهار، وقد نلحظ الحالة الغالبة أنّ أكثر الولادات تكون بالليل وتتأخّر أخبار المولود له إلى النهار، وخصوصا بالأنثى..."^(٥٥).

أما (بات) بمعنى (صار) فقد وردت في حديث في (باب وضوء النائم إذا قام من نومه): "إذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يديه قبل أن يدخلها في وضوئه، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده"^(٥٦).
 وتلحق بـ(صار) أفعال ناقصة تدلّ على التحوّل والسيرورة نحو: (أض، وعاد، ورجع، وحر، واستحال، وتحوّل، وارتدّ). وندر الإلحاق بـ(صار) قول العرب: (ما جاءت حاجتك؟) و(أرهف شفرته ففعدت كأنها حربة)^(٥٧)؛ أي: فصارت كأنها حربة.

وتستعمل (كان) بهذا المعنى إذا جاءت أخبارها صفات الله تعالى التي لها ضدّ، وتُعرّب أحوالاً، نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: ١٦).

بداية الخطاب للزناة الرجل والمرأة بعد الشهادة عليهما، فإنّ الأمر هو عقوبة الإيذاء بالتوبيخ، أي الضرب بالنعال، عن ابن عباس، ثمّ النهي عن الإيذاء إذا تاب الزاني وأصلح؛ لأنّ الله سيتحوّل من حال القسوة إلى الصفح والرحمة بعد تحوّل سلوك المحكوم عليه بالإيذاء، فقال: (إنّ الله كان تواباً رحيماً)، أي: مبالغ في قبول التوبة، (رحيماً) واسع الرحمة. والجملة في معرض التعليل للأمر بالإعراض فيكون الخطاب للحكّام^(٥٨).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ (النساء: ٢٩)، الذي نلحظ معنى السيرورة في (كان) في سياق تعليل النهي عن قتل المسلمين لأنفسهم؛ لأنّ الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، ثمّ تحوّل هذا التشريع العقابي القاسي الذي يليق بقساة القلوب إلى تشريع الرحمة الذي يليق بأمة محمد(ص)، قال الألوسي: "وقيل معناه أنّه كان بكم -يا أمة محمد- رحيماً، إذ لم يكلفكم قتل الأنفس... كما كلف بني إسرائيل في ذلك"^(٥٩).

أما عند من لم يلحظ هذا المعنى الدقيق، أي التحوّل من تشريع العقوبة القاسية إلى تشريع الرحمة لمن تاب وأصلح فإنّه ينتقل إلى فهم معنى (كان) بـ(كان ولم يزل)، قال الطبرسي في تفسير: (إنّ الله كان بكم رحيماً): "أي: لم يزل بكم رحيماً، وكان من رحمته أن حرّم عليكم قتل الأنفس..."^(٦٠).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٤٣).

قسّمت هذه الآية الكريمة الطهارة التي تليق بالصلاة على فئتين، فئة عليا وهي الصحو والاعتسال، وفئة دنيا التيمم وعدم الصحو، وهذه مباحة عند الاضطرار على أن يكون (السكر) بمعنى النعاس أو التكاثر بحسب ما ورد من روايات عن أهل البيت (ع) إذ ورد عن أبي جعفر (ع) قال: "لا تقم إلى الصلاة متكاسلا ولا متناعسا ولا متناقلا فإنّها من خلل النفاق..."^(٦١). والفئة الثانية لا تُقبل إلا بشرط المغفرة والرحمن، إذ يتحوّل حكم الله تعالى عليك من الفئة الدنيا إلى الفئة العليا عن طريق العفو والغفران، قال الألويسي: "المعنى تحليل لما يفهمه الكلام من الترخيص والتيسير، وتقرير لهما، فإنّ مَنْ عادته المستقرة أن يعفو عن الخاطئين ويعفر للمذنبين لا بدّ أن يكون مُيسِّرا لا مُعسِّرا...؛ لأنّ الأصل الطهارة الكاملة وأنّ غيرها من الرخص من العفو والغفران"^(٦٢).

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٢٤)، أي: أنّ الله تعالى أباح لنفسه أن يبقى على صفة المعذب للمنافقين أو يتوب عليهم؛ لأنّه صار غفورا رحيمًا لمن تاب وأصلح قبل الموت. وهذا يهني أنّ (أو) لا تفيد معنى التخيير بل تفيد معنى الإباحة نحو: "جالس الحسن أو ابن سيرين، والفرق بينهما جواز الجمع في الإباحة، ومنع الجمع في التخيير"^(٦٣).

أما عند مَنْ فهم معنى التخيير من الحكام المخاطبين فإنّ الله تعالى لم يُحيرهم في أمرهم، إذ بيّن تفاصيل التوبة المقبولة التي تحوّل حكم القسوة إلى حكم العفو والرحمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٧-١٨).

ويتضح معنى الصيرورة في تحوّل أحكام العقاب الشديد إلى أحكام الرحمة والغفران في تقسيم المؤمنين على فئتين: فئة القاعدين بلا ضرر، وفئة المجاهرين، ثم تقسيم الفئة القاعدة في أرض الكفر على فئة قاعدة من دون عذر وأخرى قاعدة بعذر من الرجال والنساء الكبار السن والصغار، فهؤلاء يغفر الله له ويعفو عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ٩٥-١٠٠).

ورد تحوّل صفات الله تعالى التي لها ضدّ في تذييل ثلاث آيات، الأولى: (وكان الله غفوراً رحيماً) بمعنى (صار غفوراً رحيماً) لكلّ مؤمن على الرغم من أنّهم فئات مختلفة أداها فئة القاعدين عن الجهاد والهجرة في سبيل الله ورسوله من دون وجود عذر لهم، ومع ذلك وعدم (الله الحسنى)، بسبب صيرورة صفة من الشدة إلى الغفران والرحمة، قال الألوسي: " (وكان الله غفوراً رحيماً) تذييل مقرر لما وعد سبحانه من قبل" (٦٤).

أما قوله: (وكان الله عفواً غفوراً) الثانية فإنّها تعني: (قارب أن يصير عفواً غفوراً مع من له عذر) بسبب كبر سنّه أو صغره من الأطفال، بدلالة (عسى)، قال الزمخشري: "فإن قلت لمّ قيل: (عسى الله أن يعفو لهم، بكلمة الإطماع؟)، قلت: للدلالة على أنّ ترك الهجرة أمرٌ مضيق لا توسعة فيه، حتى إنّ المضطرّ البين الاضطرار من حقّه أن يقول: عسى الله أن يعفو عني، فكيف بغيره؟! " (٦٥).

أما قوله تعالى: (وكان الله غفوراً رحيماً) الثالثة، فهي تخصّ فئة من يهاجر ويموت في أثناء الهجرة

الغرض ديني، من طلب علم، أو حجّ، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعةً أو قناعة وزهداً في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيّب، فهي هجرة في سبيل الله ورسوله^(٦٦)، وإن لم يحقق مبتغاه بسبب الموت؛ لأنّ الله سيعوّض قساوة الموت بالمغفرة والرحمة الأخروية.

ويتضح معنى صيرورة صفات الله تعالى التي لها ضدّ من شدة العذاب إلى الغفران والرحمة بوصفهما عاملين تابعين لعامل مستقل يظهر في تغيير سلوك المخاطبين من الكفار ومرتكبي جرائم القتل والزنا إلى التوبة والإيمان والعمل الصالح الذي يُبدّل السيئات بالحسنات بأسلوب يُبيّن كيفية التفاعل بين العاملين بالتقصيل التجريبي المحسوس، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨-٧٠).

أما (وكان الله غفوراً رحيماً) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٩)، فإنّ المغفرة والرحمة تخصّ ما "عسى يصدر من الإخلال بالتسترّ [من الجزئيات]، وقيل: ما سلف منهنّ من التفريط"^(٦٧).

أما الرحمة فتتصل بالتشريع الذي يمنع الأذى، إذ كانت "الحرّة والأمة تخرجان لقضاء الحاجة في الغيطان وبين النخيل من غير امتياز بين الحرائر والإماء، وكان في المدينة فسّاق يتعرّضون للإماء، وربّما تعرضوا للحرائر فإذا قيل لهم يقولون حسبناهنّ إماء، فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء بالزّي والتسترّ... و(رحيماً) كثير الرحمة فيُثيب من امتثل أمره منهنّ"^(٦٨).

وقد تكون صفة الله المتحوّلة هي فصل العلم العاصم من الضلالة الذي يخصّ به الله تعالى أنبيائه، والذي مهما كان قليلاً فإنّه يُصبح عظيماً؛ لأنّه يحوّل شخصية النبي إلى شخصية متميزة ومفارقة لشخصية البشر الاعتياديين، قال تعالى على لسان يوسف (ع): ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ

رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿يوسف: ٥٣﴾، وعلى لسان نبيه محمد(ص) حين سئل عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا * وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَنَنْزِلَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٥-٨٧).

والمعنى: (صار فضل الله القليل عليك عظيماً)، قال الأندلسي(ت٧٤٥هـ): "هذا من أعظم الدلائل على أنّ العلم أشرف الفضائل والمناقب، وذلك أنّه تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا قليلاً- ونصيب الشخص من علوم الخلائق يكون قليلاً، ثمّ سمى ذلك القليل عظيماً"^(٦٩).

وخلاصة القول إنّ استعمالات (كان) بمعنى (صار) جاء أقلّ نسبة من استعمالات (كان) بمعنى: (كان ولم يزل)، أو بمعنى استمرار الوصف على موصوفه؛ لأنّ الأصل في صفات الله تعالى هو الثبوت، أما الصفات المتغيرة لمواكبة المتغيرات في السلوكية فإنّها تمثل فرعا، أو استثناء من القاعدة، ومع ذلك فإنّ نسبة هذا الاستثناء كبيرة بالقياس مع الأديان الأخرى التي تشدد العقاب، إذ وردت الصفات المتغيرة بهيأة: (إنّ الله كان... (٦) مرات في سورة النساء، وفي سورة الأحزاب (٦) مرات أيضاً، مرة واحدة بهيأة (إنّ الله كان... (٥) مرات غير مؤكدة بهيأة: (وكان الله...))، ومرة واحدة في سورة الفرقان وفي سورة الفتح بهيأة: (وكان الله...)).

وهكذا تُصبح نسبة استعمال (كان) مع الصفات الإلهية التي لها ضدّ حوالي ٣٨%، ونسبة استعمالها بمعنى: (كان ولم يزل) مع الصفات الإلهية التي ليس لها ضدّ ٦٢%، ما يجعل تعامل الله تعالى مع عباده مبنياً على التسامح والرحمة والمغفرة بنسبة كبيرة رحمة بأمة محمد(ص) بالقياس إلى الأمم السابقة، ولاسيما اليهود الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤)؛ لخصوصية الأمة الإسلامية التي تقبلت الرسالة الخاتمة برحابة صدر وضحت من أجلها ونصرت نبيها حتى نسي كثير من المسلمين الأحكام والتقاليد الجاهلية المبنية على الفتن والقسوة في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، إذ صار المؤمنون إخوة حتى لو حصل

بينهم خلاف وقتال، لذلك أوجب الله تعالى على الفئات غير المتقاتلة تكليف السعي بالصلح بين الفئات المتقاتلة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠).

وقد أفاد الدكتور إبراهيم أنيس أنّ (كان) استعملت في القرآن الكريم استعمالاً خاصاً، إذ لحظ مجيب: "ما يربو على (٤٠٠) من الآيات اشتمل كلّ منها على الفعل (كان)، -وهو ما يعدّه النحاة معبراً عن الزمن الماضي-، غير إنّنا لا نكاد نلاحظ بوضوح معنى الماضي في الفعل (كان) إلاّ في عدد قليل من تلك الآيات" (٧٠)؛ لأنّ (كان) عنصر دخيل على الجملة الأصل، ويؤلف مع فعل الجملة عبارة الفعل فيتفاعل زمنه مع زمن الخبر، الذي يختلف صرفياً، ومعجمياً ومقامياً باختلاف موضوعه، إذ يأتي أحياناً بهياً المشتقات المستمرة الزمن في قولنا: (كان زيدٌ نشيطاً)، للدلالة على زمن الحدث المنقطع في الماضي، وقد يأتي بهياً الفعل الماضي في قولنا: (كان زيدٌ حَصْرَ)، فيدلّ على الزمن الماضي المنقطع البعيد، ومثاله المقامي الواضح قولك: (كنتُ درستُ النحو في المتوسطة)، وأنت الآن متخرج في الكلية؛ لذلك تنبّه المحدثون إلى ما أغفله القدماء (٧١)، فقَسَمُوا أزمنة الفعل تقسيمات بلغت اثني عشر قسماً (٧٢)، أهمها فيما يخص موضوعنا ثمانية هي:

- ١- (كان + فعل): للدلالة على الماضي المنقطع البعيد، نحو قولك: (كنتُ درستُ النحو في المتوسطة).
- ٢- (لقد + كان + فعل): للدلالة على الماضي المنقطع البعيد المؤكّد، نحو قولك: (لقد كنتُ درست النحو في المتوسطة).
- ٣- (كان + قدّ + فعل): للدلالة على الزمن الماضي القريب من المضارع، نحو قولنا: (كنتُ قد درستُ الدرس).
- ٤- (كان + فاعلاً): للدلالة على الزمن المستمر المتصل بالمضارع إذا جاءت (كان) بمعنى (صار) التي خبرها حال؛ لأنّ الأحوال تحوّل أزمنة العامل الماضي إلى الماضي المستمر. وبمعنى (كان ولم يزل) لوصف طبائع الأشياء، وأكثر ما تأتي أخبار (كان) من المشتقات المستمرة الزمن.

- ٥- (كان + يفعل): للدلالة على حكاية الماضي المستمر مدّة، المقول (هنا _ الآن).
- ٦- (مازال، ما انفكّ، أضحى أمسى، أصبح + يفعل): للدلالة على أنّ الحدث كان مستمرا في زمن الماضي المتصل بزمن المضارع، نحو قولنا: (أضحى المطرُ يتدفّقُ بغزارة).
- ٧- (السين أو سوف+ كان + يفعل): للدلالة على زمن المستقبل.
- ٨- الأمر بـ(كان) للدلالة على زمن المضارع أو المستقبل.

الخاتمة:

- إذا كان لابدّ لكلّ بحث من خاتمة تدرج فيها أهمّ نتائج البحث، فيمكن إيجاز النتائج بما يأتي:
- ١- ينتمي هذا البحث إلى ما يُسمّى بالبحوث الموضوعية، أي التي تنحصر بموضوع معين صغير ودقيق، وهو البحث عن معاني النحو في الجمل المحوّلة بإضافة الوحدة النحوية (كان) وبعض أخواتها التي جاءت أخبارها صفات الله تعالى وطبائع مخلوقاته الثابتة، إذ قُسمت صفات الله تعالى على قسمين: أولهما: صفات الله تعالى التي ليس ضدّ الثابتة، نحو: العليم والحكيم والخبير والمحيط بكلّ شيء... الخ، وثانيهما: صفات الله تعالى التي لها ضدّ، نحو: الهداية والرحمة والغفران والعفو، التي تقابل الإضلال وشدّة العقاب واللعنة. وهذه الصفات متحوّلة من حال إلى أخرى فتكون (كان) بمعنى (صار). أما الصفات الثابتة التي ليس لها ضدّ فإنّها إذا جاءت أخبارا لـ(كان) كان معناها الدلالة على الماضي المستمر في الحاضر ويُعرف بتقنية: (كانَ ولم يزل).
- ٢- تدلّ الصفات الثابتة التي ليس لها ضدّ على عظمة الخالق وعلمه وخبرته وقدرته على كلّ شيء؛ لذلك جاءت تشريعاته المذيلة بـ(وكان الله عليما حكما) مثلا منسجمة مع النظام الذي تتقدّم به البشرية؛ لأنّ خرق هذه التشريعات يؤدي إلى فساد النظام كله. أما الصفات المتحوّلة من حال إلى أخرى، فإنّها تسلّط الضوء على مبدأ التسامح مع العباد في القضايا التي هي من نوع الآثام والتي تشبه الفايروسات التي لا تُرى ولكنها تحتاج إلى وقت طويل للتخلص منها والسيطرة عليها، فتعامل معها الله تعالى على أنّها عوامل مستقلة تؤثر في الصفات الإلهية المتحوّلة من الضدّ إلى الضدّ، من شدّة العقاب إلى الغفران

والرحمة والعمو بوصفها عوامل تابعة لتيسير تغيير السلوك من السلبي إلى الايجابي رحمة بأمة محمد(ص)، حتى بلغت نسبة هذا التعامل في عينة البحث نسبة كبيرة ٣٨% بالقياس إلى نسبتها عند الأمم الأخرى.

٣- يتفاعل زمن (كان) مع زمن أخبارها التي تدلّ على طبائع المخلوقات وفضائل الله تعالى أنبيائه وعلى الناس لتكوين مركّب الخبر، وتكون (كان) بمعنى (كان ولم يزل)، للدلالة على ثبوت هذه الطبائع والفضائل، وهذا يعني أن (كان) تتخلى عن زمن الماضي المنقطع، أو المحدد بالمضارع أو المستقبل.

الهوامش:

(١) المقرّب، ابن عصفور: ٢٢٢، ظ: شرح التسهيل، ابن مالك: ٢/٢٧٤.

(٢) ظ: ، معاني القرآن، الفراء: ١/٢٠.

(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني: ١٧٥.

(٤) ظ: الكتاب، سيبويه: ١/١٢، الدلالة الزمنية في الجملة العربية، علي جابر المنصوري: ٢٨ وما بعدها.

(٥) شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش: ٤/٢٠٧.

(٦) نظرية التأويل، الخطاب وفائض القيمة، بول ريكور: ١١.

(٧) ظ: في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي: : ١٤٨ وما بعدها.

(٨) ظ: الأزمنة في اللغة العربية، فريد الدين آيرن: ٧.

(٩) نظرية النحو العربي ورؤيتها لتحليل البنى النحوية، رابح بو معزة: ١٦.

(١٠) الأزمنة في اللغة العربية، فريد الدين آيرن: ٦.

(١١) نظرية النحو العربي ورؤيتها لتحليل البنى النحوية، رابح بو معزة: ١٦.

(١٢) إعراب القرآن وبيانه، الدرويش: ٢١/١٦٠.

(١٣) ظ: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور: ١٤.

(١٤) شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش: ٢/٨٤.

(١٥) المقرّب، ابن عصفور: ٢٢٢، ظ: شرح التسهيل، ابن مالك: ٢/٢٧٤.

(١٦) المعجم المفصل في دقائق اللغة العربية، د. إميل بديع يعقوب: ٣٢٢.

- (١٧) البيت للربيع بن ضبيع في: الأزهية، الهروي: ١٩١، حماسة البحتري: ٢٠٢، شرح التسهيل، ابن مالك: ٣٢٤/١.
- (١٨) إعراب القرآن وبيانه، الدرويش: ١/١٦٣.
- (١٩) إعراب القرآن وبيانه، الدرويش: ٣/٣٧٢.
- (٢٠) الأزهية، الهروي: ١٩٣.
- (٢١) ظ: الكشاف، الزمخشري: ١/٥١١، و٤/١٥.
- (٢٢) ظ: النحو العربي، د. إبراهيم إبراهيم: ١/٣٠٠.
- (٢٣) شرح التسهيل، ابن مالك: ١/٣٢٥.
- (٢٤) إصلاح الخلل الواقع في الجمل، الزجاجي: ١٤١.
- (٢٥) معاني النحو، د. فاضل السامرائي: ١/١٩٠.
- (٢٦) الأصول في النحو، ابن السراج: ١/٢١٣-٢١٤.
- (٢٧) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني: ٦٦، ظ: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي: ١/٦١٣.
- (٢٨) الكشاف، الزمخشري: ٢/٣٦١.
- (٢٩) جامع البيان، الطبري: ٤/٢٣٥.
- (٣٠) الأزمنة في اللغة العربية، فريد الدين آرن: ١٢.
- (٣١) البيت بلا نسبة في: شرح التسهيل، ابن مالك: ١/٣٢٧، همع الهوامع، السيوطي: ١/١١٦.
- (٣٢) لسان العرب، ابن منظور: ١٤/٢٢٥.
- (٣٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١/٥٨.
- (٣٤) معاني النحو، د. فاضل السامرائي: ١/١٩٠.
- (٣٥) من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس: ١٤٧.
- (٣٦) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي: ٢٩/١٢٣.
- (٣٧) البيت منسوب إلى شاعر جاهلي من الفرسان توفي عام (٢٢) قبل الهجرة. ديوان المفضليات، ابن الأنباري: ٢٤٣،
- إصلاح الخلل الواقع في الجمل، الزجاجي: ١٤١.
- (٣٨) إصلاح الخلل الواقع في الجمل، الزجاجي: ١٤١.
- (٣٩) معاني النحو، د. فاضل السامرائي: ١/١٩٠.

- (٤٠) شرح التسهيل، ابن مالك: ٣٢٧/١، ظ: إصلاح الخلل الواقع على الجمل، الزجاجي: ١٤٠.
- (٤١) ظ: شرح التسهيل، ابن مالك: ٣٢٤/١، التبيان في إعراب القرآن، العكبري: ٢٩١/١-٢٩٢.
- (٤٢) م.ن: ١٩٤/١.
- (٤٣) مفاتيح الغيب، الرازي: ٢٢٦/٩، روح المعاني، الآلوسي: ٥٩٥/٤.
- (٤٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٣/٣٤٦.
- (٤٥) الكشف، الزمخشري: ٥٤٣/١، البحر المحيط، الأندلسي: ٣/٤٨٦.
- (٤٦) ظ: الكشف، الزمخشري: ٥٤١/١.
- (٤٧) التبيان في إعراب القرآن، العكبري: ٢٩١/١-٢٩٢.
- (٤٨) البحر المحيط، الأندلسي: ٣/٣٠٦.
- (٤٩) القرارات الجمعية في الألفاظ والأساليب، أعدّها وراجعها محمد شوقي وإبراهيم التزوي: ١٩.
- (٥٠) ظ: الكشف، الزمخشري: ٢/٦٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي: ٢٠/١٣١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦/٣١١.
- (٥١) البيت منسوب لعمر بن أحمز، ديوانه: ١١٩، الحيوان، الجاحظ: ٥/٥٧٥، المقرّب، ابن عصفور: ١٤، شرح التسهيل، ابن مالك: ٣٢٧/١.
- (٥٢) الرجز لجندل بن منى في: الإنصاف، الأنباري: ٣/٨٣، شرح التسهيل، ابن مالك: ١/٣٢٤.
- (٥٣) شرح التسهيل، ابن مالك: ١/٣٢٤.
- (٥٤) ظ: الفاخر، البعلي: ١/٣٩٢، شرح ابن عقيل: ٢/٢٠٧ هامش (١)، مغني اللبيب، ابن هشام: ٢/٦٠٤، الأشباه والنظائر، السيوطي: ٢١/٨٦، النحو الوافي، عباس حسن: ١/٨٦، المحيط، الأنطاكي: ٢/١٩٠.
- (٥٥) البحر المحيط، الأندلسي: ٥/٦٤١.
- (٥٦) مسند أحمد، حديث (٩)، صحيح البخاري، حديث (١٦٢)، صحيح مسلم، حديث (٨٨)، (٢٧٨).
- (٥٧) ظ: شرح التسهيل، ابن مالك: ١/٣٢٤، المقرّب، ابن عصفور: ١٤١.
- (٥٨) ظ: مجمع البيان، الطبرسي: ٣/٣٥، مفاتيح الغيب، الرازي: ٩/٢٤٣، البحر المحيط، الأندلسي: ٣/٢٥٧، روح المعاني، الآلوسي: ٤/٦٠٥.
- (٥٩) روح المعاني، الآلوسي: ٥/٢٣.
- (٦٠) مجمع البيان، الطبرسي: ٣/٦٠.

- (٦١) الميزان، الطباطبائي: ٣٦١/٤.
- (٦٢) روح المعاني، الآلوسي: ٥٩/٥.
- (٦٣) الجنى الداني، المرادي: ٢٢٨.
- (٦٤) روح المعاني، الآلوسي: ١٦٣/٥.
- (٦٥) الكشاف، الزمخشري: ٥٨٩/١، روح المعاني، الآلوسي: ١٦٦/٥.
- (٦٦) الكشاف، الزمخشري: ٥٩٠/١.
- (٦٧) روح المعاني، الآلوسي: ٣٦٢/٢٢.
- (٦٨) م.ن: ٣٦٠/٢٢.
- (٦٩) البحر المحيط، الأندلسي: ٤٩٢/٣.
- (٧٠) من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس: ١٤٦.
- (٧١) ظ: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان: ٢٤٥ وما بعدها.
- (٧٢) ظ: العربية وعلم اللغة الحديث، د. محمد محمد داود: ١٧٣-١٧٤.

المصادر والمراجع:

- لقرآن الكريم.

١. الأزمنة في اللغة العربية، فريد الدين آيرن، دار العبر للطباعة والنشر، اسطنبول، ١٩٩٧م.
٢. الأزهية في علم الحروف، علي بن محمد النحوي الهروي (ت٤١٥هـ)، تحقيق عبد الغني الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (١٣٩١هـ/١٩٧١م).
٣. الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي (ت٩١١هـ)، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٤. الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي (ت٩١١هـ)، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢ (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٥. إصلاح الخلل الواقع في الجمل، الزجاجي، عبد الله بن محمد بن السيد البطلبوسي (ت٥٢١هـ)، تحقيق عبد الله النشرتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٦. الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج البغدادي (ت٣١٦هـ)، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط٤، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٧. إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار اليمامة ودار ابن كثير، دمشق، بيروت، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، سوريا، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٨. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء الأنباري (ت٥٧٧هـ)، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه حسن حمد، بإشراف: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
٩. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بابن حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
١٠. التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله العكبري (ت٦١٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١١. التعريفات، أبو الحسن علي بن محمد الجرجاني المعروف بالسيد الشريف (ت٨١٦هـ)، تقديم د. أحمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
١٢. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، (١٣٦٥هـ/١٩٤٦م): ٢٩/١٢٣.
١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢ (١٣٧٣هـ/١٩٥٤م).
١٤. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق سالم البديري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).
١٥. الجنى الداني في حروف المعاني، صنعة الحسن بن قاسم المرادي (ت٧٤٩هـ)، تحقيق فخر الدين قباوة، الأستاذ محمد نديم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
١٧. حاشية الدسوقي على مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام الأنصاري، محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت١٢٣٠هـ)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٩م.
١٨. الحماسة، أبو عباد الوليد بن عبيد البحر، تحقيق محمد إبراهيم محمد، ود. أحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٧م.

١٩. الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٣، (١٣٨٨هـ/١٩٦٩م).
٢٠. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ط ٣، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
٢١. ديوان المفضليات، أبو بكر المفضل بن محمد بن يعلى الأنباري، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، (د.ت.).
٢٢. ديوان عمرو بن أحمر، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٧م.
٢٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل محمد الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق محمد أحمد أمين، وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٢٤. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، ومعه كتاب منحة الجليل بتحقيق ابن عقيل، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الغدير للطباعة والنشر والتجليد، قم، ط ١، (١٤٢٩هـ).
٢٥. شرح التسهيل، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، وطارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١ (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٦. شرح المفصل للزمخشري، أبو البقاء يعقوب بن علي بن يعقوب الموصلي (ت ٦٤٣هـ)، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه، د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٧. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، طبعة بالأوفسيت عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١هـ.
٢٨. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، حقق نصوصه وصححه ورقمه وعدّ كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة (د.ت.).
٢٩. العربية وعلم اللغة الحديث، د. محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.
٣٠. علي جابر المنصوري: الدلالة الزمنية في الجملة العربية، مطبعة جامعة بغداد، ط ١، ١٩٨٤م.
٣١. الفاخر في شرح جمل عبد القاهر، محمد بن أبي الفتح البجلي (ت ٧٠٩هـ)، تحقيق ممدوح محمد خسارة، الكويت، ط ١ (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
٣٢. القرارات المجمعية في الألفاظ والأساليب، أعدّها وراجعها محمد شوقي وإبراهيم الترزي، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٩م.

٣٣. الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه) (ت ١٨٠هـ)، علق عليه ووضع حواشيه د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٣٤. كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الشيخ محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي (ت ١١٨٥هـ)، وضع حواشيه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
٣٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، حققها على نسخة خطية: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
٣٦. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (ت ٧١١هـ)، اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط٣، (د.ت).
٣٧. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، ط٤، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
٣٨. مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، حققه وعلق عليه لجنة من العلماء والمحققين الاختصاصيين، قدم له محسن الأمين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
٤٠. المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، مكتبة دار الشرق، شارع سوريا، بيروت، ط١، (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).
٤١. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت).
٤٢. معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار السرور.
٤٣. معاني النحو، د. فاضل السامرائي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٤٤. المعجم المفصل في دقائق اللغة العربية، د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).
٤٥. مغني اللبيب عن كتب الأعراب، جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، ط١ (١٣٧٨ق.ش).
٤٦. مفاتيح الغيب، محمد بن فخر الدين بن ضياء الدين الرازي (ت ٦٠٤هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط٣، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٤٧. المقرب ومعه مثل المقرب، أبو الحسن علي بن المؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الحضرمي الأشبيلي (ت ٦٦٩هـ)، تحقيق وتعليق ودراسة عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
٤٨. من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلومصرية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م.
٤٩. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، منشورات مؤسسة دار المجتبي للمطبوعات، قم، إيران، طبعة أولى محققة، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
٥٠. النحو العربي، د. إبراهيم إبراهيم بركات، دار النشر للجامعات، مصر، دار بن حزن، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٧م.
٥١. النحو الوافي، عباس حسن، مكتبة المحمدي، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٥٢. نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.
٥٤. نظرية النحو العربي ورؤيتها لتحليل البنى النحوية، رايح بومعزة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠١١م.
٥٥. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨م.